إله واحد فقط

سئل ذات مرة طفل صغير: كم عدد الآلهة الموجودة؟
أجاب: واحد
وكيف تعرف؟
أجاب: لأنه يوجد مكان لواحد؛ لأن الله يملأ السماء والأرض. فلا توجد حقيقة على الإطلاق يعلمها الكتاب المقدس بدقة ووضوح أكثر من حقيقة أنه لا يوجد إلا إله واحد الموجود فعلا، ولو لم يكن الأمر كذلك لكنا افترضنا وجود آلهة كثيرة، وهو الأمر الذي ينكره الكتاب باستمرار، فلا يوجد آلهة أخرى على الإطلاق. إن البشر بصورة عامة لا يؤمنون بإله واحد، وعملوا لأنفسهم آلهة باطلة بلا عدد، ولكن لا يوجد منها إله حقيقي، ولا واحد منها إله حي. إن كلمة "إله" استخدمت أحيانا لتشير إلى الملائكة (مز97 : 7) وذلك لأنها مخلوقات روحية ذات رتبة فائقة، وقد استخدم هذا اللقب أيضا ليشير إلى الحكام والقضاة مز (82 : 1 ، 6) وذلك بسبب تسلطهم على الآخرين. حتى أن إبليس نفسه يدعي "إله هذا الدهر" (2كو4 : 4)؛ وذلك بسبب تسلطه على الأشرار الذين اقتنصهم ظلماً، ولكن كل هذه استخدامات مجازية لكلمة "إله". لكن الكتاب المقدس يواصل إصراره على أنه لا يوجد سوى إله واحد حقيقي، وهو إله واحد حي.

لقد كان اليهود منذ طفولتهم يتعلمون ما جاء في (تث6 : 4): "اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد". ان هذا التعليم هو أحد أهم أركان الإيمان اليهودي الذي بنى على العهد القديم، ولقد كان هذا هو الإيمان الذي لا يمكن ليهودي أن ينحرف عنه، فهو يؤمن أن الرب هو الإله، ليس آخر سواه (تث4 : 35).

ولابد أن يتذكر اليهود موقف تدشين الهيكل بعد أن استفاض سليمان الملك في صلاته الحارّة، أنه التفت إلى الشعب وعبر عن مشتهى قلبه العميق: "ليكن الرب إلهنا معنا كما كان مع آبائنا، فلا يتركنا ولا يرفضنا.. ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله وليس آخر" (1مل8 : 57 ، 60). هذا كان يعبر عما يشعر به كل شخص يهودي، وكان عليه أن يكون شهادة لعالم يجهل حقيقة عدم وجود آلهة أخرى، سوى الرب الإله.

ولابد أن يفكر في أيام النبي العظيم اشعياء، والكلمات التي قالها الرب الإله له: "هكذا يقول الرب ملك إسرائيل وفاديه رب الجنود. أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري" (اش44 : 6). ان الله الذي تحدث بهذه الكلمات نجده يصرح بأنه ملك إسرائيل. إن الشخص اليهودي يرى ان مهمته العظمى هي أن يتمسك بهذا الحق: أنه لا يوجد إله آخر سوى "يهوه"، فكم أحب أن يقرأ: "أنا الرب وليس آخر. لا إله سواي.. أنا الرب وليس آخر" (أش45 : 5 – 6).

واننا نجد أن يسوع نفسه نشأ على أن يعرف ويحب أسفار العهد القديم، بل وأن يلتزم بالدفاع عن الحق فيها. إن الاعتراف بأن الله إله فريد، هو الأمر الذي أعلنه الرب يسوع بغير تحفظ (مر12 : 29 ، 32)، بل أن رسله علّموا هذا أيضا بكل وضوح (1كو8 : 4 – 6، أف4 : 6 ، يع2 : 19). إن هذا هو الإعلان الواضح عبر كل الكتاب المقدس.

الله واحد :

لقد كُتب العهد القديم باللغة العبرية، وعندما كان اليهودي يتلو الكلمات الموجودة في (تث6 : 4)، كان يتلوها بتلك اللغة، كما يفعل ذلك حتى اليوم، وللأسف فإن اللغة الإنجليزية عاجزة على أن تترجم بدقة ما تعنيه الكلمات في (تث6 : 4) في جملة واحدة. إنها تعني أكثر من أن "الرب إلهنا رب واحد". إن هذه الكلمات يمكن أن تفهم ببساطة على أنه، لا يوجد إله آخر سوى الرب، وأنه هو الإله الوحيد. لكنها ممكن أن تترجم أيضا كالتالي: "الرب إلهنا الرب واحد". انه ليس فقط الإله الوحيد، بل ان هذا الإله الوحيد هو واحد.

لكن ما الذي نحاول أن نقوله هنا؟ يقول لويس بيركهوف "إن الله واحد في كيانه الجوهري أو طبيعته الأساسية، فما معنى ذلك؟ معنى ذلك أن الله لا يمكن تقسيمه إلى أجزاء. بمعنى آخر، فنحن لا يمكننا الحصول على مجموعة من أجزاء، كل منها أقل من الله، وعندما نضعها معاً نحصل على الله؛ فهو ليس مثل لعبة المكعبات الخشبية، ولا مثل الجسم البشري الذي يتكون من أعضاء كثيرة؛ فلا يمكنك أن تضيف صفات

مثل أبدي، لا يتغير، كلي القداسة وكلي القدرة معاً فيصبح لدينا الله. إن الله لا يتكون من أجزاء، فهو غير قابل للانقسام. إنه واحد، كله أبدي، كله غير قابل للتغير، كله كلي القدرة والقداسة. فنحن لا يمكننا مثلا أن ننتزع منه صفة القداسة ونترك الباقي، فإذا استطعت أن تنتزع القداسة لأمكنك القضاء عليه؛ لأنه كله قدوس.

إن هذا هو ما يعنيه علماء اللاهوت حينما يتحدثون عن كينونة الله: "جوهره غير قابل للتجزئة أو الانقسام". إن كلمة "جوهر Essence" أو "كينونة being" من الممكن أن نستبدلها بكلمة جوهر: "substance" وهذا لا يعني أن الله يتكون من أي شيء. في الفصول القادمة من هذا الكتاب سنتحدث عن أن الآب والابن والروح القدس، كلا منهم من نفس الجوهر substance. ولن نقصد من هذا أنهم مكونون من نفس المادة؛ لكن نعني أنه بالرغم من أنهم متميزون عن بعضهم، إلا انهم نفس الإله الواحد، فكل ما هو الله هو الآب وكل ما هو الله هو الابن وكل ما هو الله هو الروح القدس، فكل اقنوم هو الله. كل اقنوم هو الله بذاته بكل ما يعنيه، بنفس الجوهر والكينونة والطبيعة، وبالرغم من ذلك فالله غير قابل للانقسام.

وسوف أؤكد ما نعنيه بكلمات أخرى. إن الله الآب هو يهوه، والابن هو يهوه، والروح القدس هو يهوه. لكننا لا يجب أن نظن أنه يوجد ثلاثة آلهة كل منهم اسمه يهوه، وهنا يكمن السر في هذه الوحدة. قد تشعر وكأننا نسبق الأحداث، ولكننا يجب أن نكون أولا مقتنعين بأن هناك يهوه واحد وأن يهوه الكائن هو واحد.

الله أكثر من واحد :

ولكن حتى في هذه المرحلة يجب أن نقول انه منذ بدء الأيام كان من الواضح أنَّ يهوه أكثر من واحد، ولاحظ جيداً ما نقول: أنه لا يوجد أكثر من إله واحد كما سبق وأوضحنا، ومع ذلك فالله أكثر من واحد؛ فهناك إله واحد، وانه يوجد أكثر من أقنوم في ذلك الجوهر الإلهي.

يمكنك أن ترى ذلك بوضوح في الصفحة الأولى من كتابك المقدس، فنحن نقرأ في (تك1 : 26 – 27): "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا .. فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه". الضمير المتصل في تلك الأعداد يبيّن أن الله يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع، وكأنه أكثر من واحد، ويبيّن وحدانية الله وتعدد أقانيمه. وبعد هذه الأعداد نقرأ في الاصحاح الثالث من نفس السفر: "وقال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا" (تك3 : 22)، وكذلك في (تك11 : 5 – 7) نقرأ: "فنزل الرب.. وقال الرب: هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم". في كل هذه الأعداد، نجد أن هناك إلها واحدا، لكنه يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع. وبعد ذلك بمئات السنين سمع اشعياء النبي يهوه الإله قائلا: "من أرسل ومن يذهب من أجلنا" (أش6 : 8) .

كما أن هناك أعدادا في العهد القديم تتحدث عن "ملاك الرب"، يتضح منها تماماً أن هذا الشخص هو الله نفسه، فمن الواضح أيضا أنه يمكن أن نميزه عن الله، فكلمة "ملاك" تعني المرسل، أو الذي أرسل، وعبارة ملاك الرب تعني "الشخص الذي أرسله يهوه". ففي (تك16 : 7 – 13) يسجل لنا الوحي كيف أن "ملاك الرب" أوصى هاجر – التي كانت قد هربت من ابرام ومن سارة - أوصاها أن ترجع. فمن الواضح هنا أن الذي تحدث هو الرب نفسه، لأنها قد دعت ذلك المكان الذي قابلته فيه "إيل رئي" (تك16 : 13). إن ذلك المرسل من الله كان هو الله بذاته.

وبعد ذلك زار ملاك الرب إبراهيم في بلوطات ممرا (تك18)، وقد ظهر الزائر في هيئة رجل (عدد2)، ولكن الوحي ذكر بوضوح أن الزائر كان الرب بنفسه (اعداد 1 ، 13 – 14)، وقد أدرك إبراهيم ذلك، وقدم له الصلاة (اعداد23 – 32).

ولم تكن تلك هي المرة الأخيرة التي قابل فيها إبراهيم ملاك الرب. كان هو الملاك ذاته الذي أمر إبراهيم أن يتوقف عن ذبح ابنه اسحاق (تك22 : 11 ، 15)، وقد دعى إبراهيم ذلك المكان "يهوه يرأه" (عدد 14)، أي "الرب يُرَى"، لأنه أدرك للمرة الثانية بوضوح، هوية ذلك الزائر السماوي، فقد اعطاه الملاك وعدا؛ إذ قال: "بذاتي أقسمت يقول الرب.." (عدد16). فالذي أرسل من الرب كان هو الرب ذاته. وهناك العديد من الفصول الكتابية التي تشير إلى الملاك في العهد القديم، وفي كل منها يتضح جلياً أن هذا الملاك المرسل من الله هو الله بنفسه، فقد كان هو "ملاك الرب" الذي تحدث إلى

موسى من العليقة المتقدة حيث قال: "أنا إله أبيك..." (خر3 : 6)، ويمضي في حديثه ليعلن عن شخصيته أكثر باسم "أهيه الذي أهيه" أي الكائن الذي يكون (خر3 : 14). إنه ذاته الملاك الذي قاد يعقوب وخلصه (تك48 : 15 – 16)، وقد كان هو الرب بذاته الذي كان يسير أمام شعب بني إسرائيل، بعد أن خرجوا من أرض مصر (خر13 : 21 ، 14 : 19).

وأيضا كان هو "ملاك الرب"، الذي ظهر مرتين في سفر القضاة، وفي كل مرة كان يكشف عن ذاته أنه هو الله (قض6 : 11 – 12 ، 14 ، 16 ، 13 : 3 ، 9 ، 22). من ذلك نرى أن الله قد أرسل من الله. وفي نبوة اشعياء يتضح لنا شيء مشابه، فقد أخبر إسرائيل أن الرب الإله سوف يعطيهم آية: "ها العذراء تحبل وتلد ابْنًا "، وان اسمه سوف يدعى عمانوئيل، الذي معناه "الله معنا" (أش7 : 14)، وأن ذلك الشخص الذي سيرسله الله، سوف يكون الإله القدير (أش9 : 6). والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو: كيف يمكن أن يرسل الله إلهاً إن لم يكن الله موجودا في أكثر من أقنوم؟ فلا يجب أن ننسى الآيات التي قد سبق وذكرناها من سفر اشعياء، فنفس السفر يكرر بإصرار على انه: لا يوجد إله إلا الواحد الذي عبده شعب بني إسرائيل. فهو إله واحد لكنه متعدد الأقانيم.

لذلك يخبرنا العهد القديم عن الله الذي يمسح الله (مز45 : 6 – 7). إن الرب الإله وروحه يرسلان شخصاً هو إله بذاته، (اش48 : 16)، ونجد يهوه الإله يقيم ملكا موعودا سيكون هو يهوه (أر23 : 5 – 6). وهكذا نجد أنفسنا نواجه ذلك الحق العجيب وهو أن "الإله الواحد متعدد الأقانيم".

ونحن هنا لا نقول أن عقيدة الثالوث كانت واضحة تمام الوضوح في العهد القديم، ولا نقول كذلك أنها كانت غائبة تماما عن العهد القديم. لقد عرف مؤمنو العهد القديم أن هناك تعددا في الالوهية. وفي الواقع كانت الإشارات باهتة بأن الله الواحد هو ثلاثة، فعندما كان الكاهن يبارك شعب بني إسرائيل ويضع عليهم اسم الله، ألم يكن يذكر اسم الله (يهوه) ثلاث مرات؟ (عد6 : 22 – 27). ألم يسمع اشعياء السرافيم معلنين أن الله قدوس ثلاث مرات؟ (اش6 : 3) فكل ذلك كان إعداداً وتمهيداً للحق الذي كشفه العهد

الجديد بكل وضوح. إن الله كان يكشف عن نفسه شيئا فشيئا في أيام العهد القديم، ثم أرسل ابنه إلى العالم في ملء الزمان، وبعد ذلك سكن في قلوب المؤمنين بروحه القدوس. إن حقيقة "الثالوث" لم يتم الإعلان عنها بمجموعة من الجمل أو الافتراضات. إن عمل الله في "الخلاص" هو الذي أوضحها. إن المؤمن المسيحي يمكن أن يقرأ العهد القديم ويفهم تلك الحقيقة بسهولة أكثر من قارئيه الأصليين من اليهود. فالفقرات التي تتحدث عن وحدانية الله، وفي نفس الوقت عن تعدده في ذاته، تبدو معقولة لديه، فهو لا يتعثر عند قراءة الآيات التي تتحدث عن كل من وحدانية الله وتعدده، ولن يندهش عندما يقرأ بأن الله يناقش نفسه، أو عندما يحصى الوعود، بأن الله سيرسل الله إلى العالم. ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يدرك كيف يمكن أن يكون الله واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد. إلا أنه يعرف أن هذا هو الواقع. إن مؤمني العهد القديم كان لديهم العديد من المفاتيح لحل هذا اللغز، لكنهم لم يروا الحق بوضوح، فكل ما كان غامضاً لديهم أصبح واضحاً لنا.